# تمثلاتُ الجائحةِ في الأدبِ العربيِّ
## – ألحانُ السواجعِ للصفدي ت 764هـ مثالاً–

م.د رياض حمزة عبود
دكتوراه اللغة العربية
وزارة التربية – قسم الاشراف الاختصاص –
م.د عدي كامل حمّادي
دكتوراه اللغة العربية
وزارة التربية – المديرية العامة لتربية القادسية

**الملخص :**

يشهدُ العالمُ أجمع منذ سنتين قاتمتين جائحةً وبائية اسهمت الى حدٍّ كبيرٍ في ابطاءِ عجلةِ الحياةِ وحظرِ نشاطِ الانسان في هذه المعمورةِ؛ خشية الاصابة وانتشار العدوى ، فضلا عمّا تركته من آثار صحية ونفسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، جعلت العالم يتكاتف مرة لمواجهتها ، ويفترق أخرى في تفسيرها ، وهي بالضرورة قد تركت أثرها ولّما تزلْ حاضرة بيننا .

إنَّ تمثلَ هذه الجوائح لم تكن وليدة الساعة أو الزمن القريب ، بل رافقت الانسان بمختلف حقبه وأمصاره، وتركت أثرها فيه مُضعفةً دولا وفانيةً اخرى، فكانت آثارها ماثلة فيما تركه الانسان بمختلف مجالات ابداعه ونشاطه الفكري والمعرفي، لاسيما الادب الذي يمثل الجانب الابداعي للانسانية كلها، فهو مرآة تشتبك فيها الافكار والمشاعر؛ لتعبر بصدق عما يجول في خاطره ويمتد من خلال اللغة الابداعية ليكون نافذةً وصوتا للفكر الجمعي الذي يتلقى ذلك الإبداع على نحوٍ من التأثر .

فلا غروَ أن يكونَ اختيار البحث موافقا لظروفنا الآنية – التي نرجو وندعو أن يقصر أمدها– ، فجاءَ العنوانُ متسقا ومواكبا لما انتجه المبدعون في تمثلات الجائحة بكلِّ أشكالها ، أكانت اوبئة أو كوارث تفضي في مخرجاتها الى مقاربةِ الهاجس الانساني المشترك عبر الزمان والمكان في خشية الموت أو وقوعه.

## Abstract

For two years, the world has been witnessing an epidemic pandemic that has contributed greatly to disrupting life and banning human activity; Fear of infection and the spread of infection, in addition to its health, psychological, economic, social and cultural effects, made the world unite once to confront it, and it differs in its interpretation. His creativity and intellectual and cognitive activity, especially literature, which represents the creative side of humanity, as it is the mirror of thoughts and feelings; And honestly express what's on his mind. The choice of research must be in accordance with our current circumstances, so the title came in line with what the creators produced in the representations of the pandemic in all its forms, whether they were epidemics or disasters that illustrate the common human obsession across time and place in the fear of death

## المبحث الأول

**أولا : في مفاهيم البحث واصطلاحاته:**

1) **التمثلات : في اللغة: يذكر صاحب كتاب العين بأنَّ المَثل ((يضرب للشيء فيجعل مثله ، والمثل شبه الشيء في المثال والقدر ونحوه حتى في المعنى ، والمثال ما حصل مقدارا لغيره ، والتمثيل تصوير الشيء كأنه تنظر اليه))[1]. ويرى الأزهري أنَّ المثل الشبيه بالشيء فيضرب مثلا له ، يقول: ((قال محمد بن سلام: ومثل ذلك قوله تعالى: ((ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل)) ((أي صفتهم))[2]، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به[3].**

**وهو في الاصطلاح يقترب من جذره اللغوي وسياقاته الى حد كبير ، فالتمثيل يتوزع في حقول معرفية كثيرة ومتباينة ، فهو في اصطلاحات السرد تعني تجسيد الوقائع المحكية ، فيرى تودروف todorov أن مداره (( على طريقة تقديم الراوي للحكاية بين صيغتين رئيستين هما : السرد Narration والتمثيل Representation ))[4]**

**فالتمثل أوالتمثيل كما يصفه ميشيل فوكو: (( هو الاستراتيجية الأكثر شيوعا في انتاج المعرفة ، فهو يقوم بفكرة الاستغناء عن الشيء بصورته أو نيابة الصورة الممثلة عن الشيء)).**

**اما في اصطلاحات الفلسفة فالتمثل الشي (( تصور مثاله ومنه التمثل وهو حصول صورة الشيء في الذهن أو ادراك المضمون المشخص لكل فعل ذهني ، أو تصور المثال الذي ينوب عن الشيء ويقوم مقامه )).[5]**

**ويربط اصحاب السرد والفلسفة بين مصطلحات مترادفة تقترب من الدلالة للتمثل مثل المحاكاة والتماثل والمماهاة ، وهي تفضي الى جعل التمثلات تعني**

---

[1] ) كتاب العين ، للخليل بن احمد الفراهيدي ت175هـ ، تحقيق عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط1 ، 2003، 4 /188.

[2] ) تهديب اللغة للأزهري : 95/15.

[3] ) المصدر نفسه : 15/ 98.

[4] ) معجم السرديات ، محمد القاضي واخرون : 112.

[5] ) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا : 342/1.

((بمثول الصورة الذهنية بأشكالها المختلفة في عالم الوعي او حلول بعضها محل البعض الآخر )).[1]

فهي تقود الى استبطان الأمر بكل جوانبه وحدوده لاستحضاره في الذهن كصورة على نحو من المشابهة والتماثل والتطابق من خلال اللغة اكانت تلك اللغة مكتوبة أو مسموعة .

فالمرء أمام الاحداث المتباينة والتي لها أثر في اعماقه يحولها الى تمثلات صورية ذهنية تنعكس صورها وفاعليتها وأثرها من خلال اعادة انتاجها وصياغتها بوسائله التواصلية وأقصد اللغة وما يترتب عليها من طاقات من خلال الصياغة والبلاغة .

ولعل حضور اللفظة في النص القرآني الكريم يبين دلالتها ، لاسيما في قوله تعالى : (( فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ))[2] ، أي تصورته بصورة على نحو المماثلة ، وبعض المفسرين يخرج التمثل في الآية الى معنى التخيل حين تراه بصورة أنسي وسموه بكونه قريب لها اسمه يوسف .[3]

ومثله قول محمد بن سلام في تفسير قوله تعالى : (( وذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ))يقول : أي صفتهم[4]

فالتمثل هو مجموع التصورات الفكرية والذهنية التي ترسخ عند المرء في قرارته حول موضوع ما أو فكرة محددة ، فيحيطها بصور ادراكية وتقريبية خاصة تشترك فيها ذاته وما تضيفه عليها بحسب العاطفة والموقف المستند على الخبرات السابقة .

فمناط الأمر هو سوسيوثقافي ينقل المعنى من كونه وقائع تاريخية الى تصييره الى فعل ثقافي من خلال النتاج الابداعي، إذ تنقله اللغة عبر تقنياتها ليمثل مشاعر صادقة ومعبرة، ولأن المبدع لا يلج الأشياء بسبل مباشرة كما المؤرخ بل يسعى لاشراك صوته الخاص وبناء عالمه الابداعي متمثلا لتلك الحادثات من خلال لغته الشعرية، ونقصد بالشعرية لا التي تختص بالشعر وحده بل هي لغة مشتركة تجعل مما يكتبه أدبا – كما فسرها جان كوهين .

---

[1] ) المعجم الفلسفي ، ابراهيم مدكور : 54.

[2] ) سورة مريم الآية 17.

[3] ) ينظر : تفسير الفخر الرازي والمعروف بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب :197/21.

[4] ) ينظر : تهذيب اللغة ، الأزهري : 95/15.

2- الجائحة : لغةً من الجوح وهو استئصال الشيء ، والجائحة هي المصيبة تحلُّ بالرجل في مالهِ فتجتاحه كله [1]، يقول أبن فارس : ((جوحَ : الجيم والواو والحاء أصل واحد، وهو الاستئصال ، ومنه اشتقاق الجائحة )).[2]

والجائحة الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سِنة أو فتنة وكل ما استأصله فقد جاحه وأحاجه بمعنى أهلكه بالجائحة [3] ، والجائحة الآفة ، والجوح الاهلاك ، وتكون بالبرد يقع من السماء اذا عظم حجمه فكثر ضرره ، وتكون بالبرد أو الحر المحرق .[4]

فهي ترد في سياقها اللغوي بمعنى الاستئصال والنازلة العظيمة والشدة المهلكة والآفة والهلاك بالمال والأنفس.

ولا يفارق الاصطلاح الدلالة اللغوية في معناه ، فالمصطلح يطّردُ في مظان الفقهاء لارتباطه في مسائل فقهية يترتب عليها احكام ثابتة في عبادات الناس ومعاملاتهم.

فلا يختلف الاصطلاح عند المذاهب في كون الجائحة آفة سماوية تفضي الى الاهلاك والضرر ، لكنهم تباينوا في أنواعها ، فالمالكية توسعوا فيه وشملوا كل آفة سماوية وزادوا عليها ما كان سببه فعل البشر ، فهي ((ما لايستطاع دفعه ان علم به )).[5]

والشافعية يرونها افعال سماوية بيد ان راسهم الإمام الشافعي في كتابه الأم يزيد عليها فيقول : ((الجائحة من المصائب كلها كانت من السماء أو من الآدميين ).[6]

بيد أن ابن قدامة من الحنابلة يقصرها على الآفات السماوية فيعرفها بقوله : (( كل آفة لاصنع لآدمي فيها كالريح والحر والبرد والمطر والثلج والبرد والجليد والصاعقة والحر والعطش ونحوها وكذا الجراد )).[7]

---

[1] ) ينظر : تاج العروس للزبيدي : 295/1.

[2] ) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس : 492/1.

[3] ) ينظر : لسان العرب :431/2.

[4] ) ينظر : تاج العروس : 6/ 355.

[5] ) الذخيرة ، شهاب الدين احمد بن ادريس : 212/5.

[6] ) كتاب الأم ، محمد بن ادريس الشافعي : 60/3.

[7] ) الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الامام احمد بن حنبل : 61/5.

فالتباين كان في مسبباتها وان كان الراجح والاتفاق على مصدرها السماوي ، بيد ان أثرها لا اختلاف فيه كونها ((تجتاح المال أو الأنفس )).[1]

والجائحة كفعل آثاره تدميرية عاشها الانسان وتمثلها مصورا لها كونها افات خارجة عن ارادته وادراكه ، فلا غرو ان يصوغها أدبا ، وقد جادت اقلام المبدعين في كتاباتهم عن الجوائح التي نكبوا بها لا تقتصر على أمم دون أخرى ، فهي كثيرا ما تكون سرديات رمزية مرة تصف الجائحة وأخرى تستشرفها ، فالانسان كما يقول الفيسلوف أبيقور Epicurus يمكن أن يكون بمأمن من كلّ شيء سوى الوباء فأمامه كل البشر يعيشون في مدينة لا أسوار لها.

ثانياً : أدب الجائحة – ألحان السواجع مثالاً

1) أدب الجائحة

إنّ الجائحة على الرغم من شرها ومظاهر فتكها وآثارها المدمرة أكانت سماوية أو غير سماوية لكنها تكون منصفة حين يتساوى الجميع أمامها ويتصاغر الكل في مواجهتها ، فتمثل الجائحة ينطلق من اللغة نفسها من خلال اعتماد الكاتب على تقنيات اللغة وأسباب الفنية فيها ، فضلا على البلاغة وبيانها وما تستجلبه من صور تكون تمثلا لمضامينها.

وهي بلا شك في سردياتها تحمل طاقة دلالية رمزية تعبر عن المنحى الرمزي الذي اكتناه الكاتب واقتفى فيه دليلا على مسببات الجائحة التي تقف غالبا عند رمزية سياسية وأخلاقية.

فهذا الأدب هو تجسيد حي لرؤية الانسان التي بقيت على الرؤية نفسها على الرغم من امتداد فاعلية الزمن التي لم تغير فيها شيئاً ، فلو وقفنا عند أقدم النتاجات الأدبية التي جاءت الجائحة في مضامينها كردة فعل ونتيجة عن فعل اخلاقي هو بالضرورة نتاج لماورائيات يقف الانسان حائرا ومستسلما ازاءها .

فمسرحية أوديب ملكا لسوفوكليس Sophoclec المتوفى سنة 405 ق . م تستشرف الانحلال الاخلاقي الذي وصم به اوديبوس حين تقرر الأقدار مصيره بأن يقتل أباه ويتزوج أمه دونما معرفة منه وقصد على الرغم من هروبه من مدينته ، فالحدث غير اخلاقي مقدر له لكنما بسبب هذه الشائنة تصيب الجائحة مدينة طيبة فيتفشى فيها

[1] ) ينظر : شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : 48/14.

الطاعون والجوع ، فيرسل اوديبوس رسولا الى دلفي للسؤال عن سبب ذلك الوباء وطريقة الخلاص منه ، فيخبره الرسول ان لا خلاص من الوباء ال اذا تطهرت من رجس حل بها ، وتستمر المسرحية في استعراض جلد الذات حين تنتحر الام ويسمل الملك عينيه ويترك البلاد .

هذا الحدث الذي ارتبط مع سردية الجائحة في الآداب المختلفة لم يكن معنيا بالجائحة بل باستعراض مشاعر الانسان ووجدانه وأنه هو المسبب للجوائح والنكبات ، فهي تتمثل بمدلولات رمزية لتفصح عن خطر أو هاجس يداهم الانسان من خلال منعه عن أمر أو اقتياده لفعل.

فلو استعرضنا امثلة هذا الأدب لوجدناها تتمثل الجوائح تمثلا قبليا تارة أو بعديا . أي أن تلك النتاجات الادبية تارة تستشرف الجائحة التي يصنعها المؤلف في ذهنه، فهي جائحة كتابية منورق ومتخيلة تستشرف الفعل الفاحش أو الموقف السلبي الذي سيفضي الى حدوث الاجئحة ، فالواقع لا تصدق سردية الكاتب بل هي متخيلة لانتاج دلالية رمزية مقصودة تسحب المتلقي معها الى ناحية التأثير فيه وبلورة موقفه من خلال وظيفة الأدب الذي عبر عنه ارسطو واصفا نتاج سوفوكليس بقوله : (( بأنه يصور الناس كما يجب أن يكونوا بينما يوربيديس يصورهم كما هم في الواقع ))[1]، وهذا القول هو الفاصلل بين ما هو شعري وما هو تاريخي.

فالأدب في جوهره لايقف عند العابر والواضح من الأحداث والأشياء بل يمتد الى العمق من خلال رصد المشاعر وتبيينها.

فنحن نرصد من خلال الأدب وسردياته الكوارث والأوبئة أو الجوائح بمعناها الأعم أكثر مما يرصدها ويعرضها الطب والعلوم المختصة من وصف وتشخيص ظاهري ويغفل الوجدان الانساني وهواجسه التي هي آثار تبقى بعد زوال الجائحة.

فأدب الجائحة يقف بين مستويين في نظرته للواقع ما دامت الجائحة هي مفصل حياتي حين توصله الى عتبة الموت ، فيرتد الى مثاليته في مواجهة هذا الهاجس الدائم الذي يطارده.

[1] ) فن الشعر ، ارسطو ، 33.

فنجد نظرته المثالية تلك في صنع عالم من اليوتوبيا في مواجهة حتمية الموت ، ونقصد باليوتوبيا بمفهومها الاصطلاحي الذي اجترحه افلاطون في مدينته الفاضلة في تصور لا مكان هو مثال لكل جيد وكامل ، فاليوتوبيا مذهب يتسم بالتفاؤل ويتضمن فكرة أن الواقع أساس جيد، والخير في الحياة يفوق المها، وهو التوقع لأفضل نتيجة ممكنة تبعث على الفرح والسرور.[1]

ويقابلها بالضد والنقيض مصطلح آخر يسمى (الديستوبيا) ويعني المدينة الفاسدة، والذي يقدم رؤية مستقبلية للعالم وما سيتحول إليه من دمار وخراب على المستويات جميعًا، لاسيما المستوى الإنساني.

فالجائحة أدبا ترى في حصول الجائحة – بعديا – أو استشرافها – قبليا – تارة يوتوبيا لخلق عالم مثالي ، وتارة ديستوبيا وهو عالم من الخراب والدمار والفساد ، وهذا يتضح من خلال رصد أفعال الاخرين أكانت تسمو الى الاخلاق كردة فعل للجائحة أو تتسم بالصغارة والضياع والفساد .

فهي بالنتيجة رؤية الكاتبة الذاتية وقناعته من الأشياء.

2) ألحان السواجع بين البادئ والمراجع لصلاح الدين بن ايبك الصفدي

ونحن إذ نجترحُ هذا العنوانَ نحددهُ بكتاب قلّ نظيره منهجا ومسلكا ونقصد كتاب (( ألحان السواجع بين البادئ والمراجع )) لصلاح الدين بن ايبك الصفدي ت 764ه .

فهو كتاب تراجم أختطه المؤلف لنفسه وللترجمة لصنوه ومجايليه من الأدباء والمترسلين وما كان بينهم من رسائل أخوانية تعتمد مبدأ المرسل والمرسل اليه ، أو الرسالة وجوابها ، وتختلف مضامينها على وفق ما كان يتداول بينهما من مودة ومعاتبة وتقريظ وغيرها ، فحفلت هذه الرسائل بأشكال أدبية تراوحت بين الشعر والنثر أو كليهما ، وحفلت بذكر ما أصاب الحياة وقتذاك من جوائح ونكبات أثّرت على حياتهم ، فجاءت بأسايب أدبية فائقة وبمشاعر صادقة تنقل معاناتهم وتجلي مخاوفهم .

فحمل هذا الكتاب في مواده ومضامينه أمثلة للجوائح التي حصلت وقتذاك وهي على نوعين : الأوبئة ، وقد تصدر – الطاعون – تلك الجوائح ومن المفارقات أن المؤلف نفسه قد اخترم عمره بطاعون سنة 764 ه الذي أصاب مصر .

[1] ) ينظر : موسوعة لا لاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، ت. خليل احمد خليل: 916.

والأخرى الكوارث البيئية كالصواعق والامطار والثلوج والفيضانات والحر والبرد .

فقد يذهب بعض الدارسين الى أن انشائهم كان لمحض التسلية أو اظهار المقدرة الادبية ، وهو رأي لا يجانب الصواب كون هؤلاء انطلقوا في مراسلاتهم منطلقا نفسيا جعلوا من الأدب متنفسا لهم وهم يكابدون تلك الجوائح وقد تفتك بهم وقد فعلت ، فكثير من الأدباء والعلماء كانوا ضحية لها في زمن استسلم المرء لأقداره فلا منجى له غير الاقرار بحتمية الحياة وانقضائها .

لكنما نحن أمام نصوص تحاول العبور عن جادة الخوف والاستسلام الى ما يبث في النفس الطمأنينة والسلام والاقرار بالايمان بالله وقدرته من خلال تمثلها صورة واساليب فنية، لاسيما واننا ازاء عصر اسلامي هو القرن الثاني الهجري كان الأدب مدونا وله نساخه وحفظته، فكانت تلك المكاتبات الرسائل تطوف الأفاق وتعبر البلدان فكان لها الأثر في نفوس المتلقين دون شك .لأن (( الصورة المتخيلة عن الواقع تمثل روح العصر الوحيدة ونتاجا من نتاجات المخيلة والحس التوليدي والمعرفي ، واداة حاسمة في التواصل )) ، فالغاية من التمثيل ان يستند على الذهن في توليد الصور المتخيلة عمّا يحيطه ، وهذا التمثيل يكون ذا سلطة على الذاكرة الجمعية

فجاء البحث مستقصيا لتمثلات الجائحة من منظور اللغة كوسيلة ابداعية تكشف عن خبايا النفس وانساق الحياة والصور البلاغية البيانية في كونها تماثله في استحضار الأشياء والاشخاص الى الذاكرة والذهن .

## المبحث الثاني

## التمثلات الفنية لأدب الجائحة في ألحان السواجع

ثمة مستويان في اللغة يجعلان الكلام يسمو من صفته العادية الى مستوى الفنية، فهو أمر مشابه لما أقرّه دوسوسير حين فرّق بين الكلام واللغة .

فالكلام بوصفه أطارا عاما يشترك فيه الجميع وغايته الاخبارزالتوصيل يختلف عن مستوى الكلام أو اللغة الشعرية حين لا تكتفي اللغة بالتوصيل والاخبار فحسب، بل يكون وكدها التأثير ، وهذا لا يتحقق الا بوسائل فنية تنطلق من طبيعة اللغة ووسائل الفنية لتحقيق ذلك ولخلق لغة بمستوى مختلف عن اللغة العادية .

لقد جاءت لغة أدب الجائحة بمستوى فني يسعى الى التأثير في المتلقي وتحفيز وجدانه ؛ لإدراك حجموأثر الجائحة ،وقد تحقق هذا الأمر بجملة تقنيات فنية سعى اليها الأدباء واهتموا بها ووظفوها في كتاباتهم ، وقد اتضحت تلك التقنيات وتجلت من خلال :

1) بنية اللغة :

اللغة وسيلة التواصل من خلال ما تحفل في بنيتها من ألفاظ وتراكيب وأصوات ، وماتسمح به في من انزياحات تعبيرية تنطلق من خلال العلاقات النحوية والبلاغية وما تشكله تلك الإنزياحات من دلالات وتأويلات تنأى عن الأصل الدلالي الموضوع لها ؛ لتخرج من وضعها المعياري الى وضع مغاير ومختلف ، فهي عدول عن الأصل أو ((خروجها من المستوى المعجمي الميكانيكي الدلالي الى المستوى الانزياحي الذي يتيح لها أن تسخر لمعان جديدة كثيرة تحيي مواتها وتوسع دلالتها)).[1]

لقد وسم الباحثون تلك اللغة بالشعرية ، فهي تختص بالضرورة بالنصوص الأدبية فحسب بلحاظ خروجها عن المعيار الوضعي لها واكسابها طاقة تأويلية وايجائية من خلال العدول عن ذلك الأصل الموضوع لها ، فوظيفتها هي الشعرية كما أقرّها " ياكبسون ".

يقول "جان كوهن "؛ إننا (نعتبر الشعرية كواقعة اسلوبية في معناها العام ، والأمر الذي ينبني عليه هذا التحليل هو أنّ الشاعر لايتحدث كما يتحدث الناس جميعا بل أن لغته شاذة ، وهذا الشذوذ هو الذي يكسبها أسلوبا ، فالشعرية هي علم الاسلوب الشعري )).[2]

فاللغة الشعرية هي (( لغة انسجام وتناغم ونظام اللغة الابداعية نسيج يبدع ويبهر ويسحر ))[3]، وهي بالضرورة معيار للغة المؤثرة التي تخلد لفنيتها لأن غاية التوصيل والاخبار منقطعة واما التأثير والابهار باقية ومتجددة مع تبددل الزمان والمكان.
فالغاية الابهارية تتحقق من خلال انتهاك القوانين القارّة للغة .

---

([1]في نظرية الرواية ، عبد الملك مرتاض ؛ 106 – 107 .

([2]اللغة الشعرية، جون كوهن، ت. محمد الولي ومحمد العمري؛ 15

([3] نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض؛ 111

لقد مثّل صلاح الدين بن ايبك الصفدي عصره في ما ترك من أثار ومظان توسعت بين الأدب والتاريخ ، فأدبه يصور عصره أدق تصوير لاسيما وأنه قد شغل مهنة الكتابة الديوانية ، وصنف كتبا متنوعة في التراجم يأتي في مقدمتها كتاب الوافي بالوفيات .

إنَّ النصوص التي وثقها الصفدي في ألحان السواجع هي نصوص مشتركة بينه وبين غيره لسرد موضوع محدد وأثره بينهما من خلال اللغة بوصفها وعاء ينقل الدلالية الرمزية وتمثلاتها من خلال اللفظ والتركيب وظواهرهما، فجاءت بنية اللغة في رسائل ألحان السواجع في نصوصها المتعلقة بالجائحة مختلفة، لاسيما في استعمال البلاغة وخصوصية تقنيات البديع في مستوى المحسن اللفظي واكساب هذه الألفاظ دلالات ايحائية قد نقلت اللفظ من دلالته المعجمية البكر أو المعيار الى دلالات سياقية مغايرة هي بالضرورة تنسحب على التراكيب ، فقد عمدوا الى تقنيات البديع اللفظي وما يستدعيه في التركيب لاسيما في الجناس والطباق والتورية ، فهي وسائل بلاغية بديعية تربط المفردة واللفظة مع مايجاورها من تشابه وتماثل صوري وصوتي ، لكنه ينأى بها عن مصطلح المماثلة الى المغايرة في الدلالة ويكسب التركيب بعدا دلاليا آخر ، فهو يخلق خلخلة عند المتلق وكسر أفق التوقع لديه، حين تتجاور الألفاظ في صورها الحرفية وتتباين في دلالاتها، ممايخلق فسحة من تهشيم المعاني القارّة ونقل مستوى الخطاب ليوحي بالاضطراب الذي يعيشه الكاتب في تلقي مايحيطه من أخبار واخطار وتنقله اللغة وتتمثله في مستوياتها اللفظية .

فهي اشارات تجعل من النص المكتوب يحمل طاقة تعبيرية ووجدانية تمثل الجائحة باضطرابها وتعسفها وخلخلتها للنمط الطبيعي والعادي ، فالمتلقي لايصل للمعنى الذي تجسده اللفظة على نحو من المباشرة بل يُعمل عقله وحواسه للوصول للمعنى البعيد المقصود الذي حرّفته الوسائل الفنية للغة من خلال تقنيات الألفاظ في الجناس والتورية وغيرها.

نلحظ ذلك في رسالة الطاعون ، إذ يسعى الكاتب الى استعمال تلك التقنيات وتوظيفها ليس لغاية فنية لاظهار البراعة الكتابية بل لتمثيل التداخل والتشابك الذي تعانيه النفس .

فالصفدي يرسل كتابايقول فيه: ((فالله يمتّع بالوجود بكمال مولانا الذي لاتزال تدور عليه البدور ، وتضم على ما يصدر من سطوره الجوائح في الصدور ، ولكنه ورد والناس في وِرد المنية ، وكل نفس في شغل عمّا حلّ بها من شدّة هذه النكبة )).[1]

فالصفدي يترجم لأحمد بن علي بن عبد الكافي قاضي القضاة فيأتي باللفظ المتجاور محملا بطاقات تعبيرية تنسجم وتنأى في الآن نفسه من خلال الجناس.

والجنّاس هو التشابه بين اللفظين واتفاقهما في أنواع الحروف واعدادها وهيأتها وترتيبها إن كان تاما ، وان اختلفا في هيأت الحروف سمي محرفا أو ناقصا .[2]

فالنص المقتبس على قصره يشي بعظم المأساة وهو يترجم له في مقام المدح والثناء ، إذ أورد ألفاظا تدل عليها ( الجوائح – المنية – النكبة ) ، لكن الجناس يتصدر لاسيما بعد أن جعله في جملة استدراكية بـ ( لكن ) فما تقدم من ألفاظ زعزته لكن المستدركة ليبدأ لعدها بالجناس بين ( وردَ – وِرد) فاللفظتان متشابهتان في بنائهما اللفظي فهما من جنس واحد بعدد الحروف ، فهو جناس تام في وضعه الحرفي وجناس محرّف في بنائه الصرفي والصوتي ، من خلال توالي الحركات على أحرفه فنقلته من الفعلية المتغيرة بدلالتها الى الاسمية الثابتة .

فضلا عما كسبته اللفظتان من دلالة مع ما جاورهما من ألفاظ في التركيب ومنحها دلالة سياقية ومستوى دلالي مغاير من خلال البلغة المتحققة في النص .

فقد تحول الفاعل ( الناس ) في معناه الى تجريده من هذه الفاعلية ؛ لأنَّ الناس ومايكابدونه من الجائحة يقعون تحت سطوة المنية فهم ( وِرد) لها ،أي أن فعل الموت هو الفاعل الحقيقي ، ولكثرته واطراده يشرب الناس بكل يسر ، فهو تمثل لصورة الموت وسهولته الذي يفتك بالبشرية فتكا واسعا وكبيرا .

وقد يستعين الكاتب باللغة من خلال أصوات حروفها لما تمثله من دلالات موحية من خلال الائتلاف أو التباين في نطق الحرف ، فهو حين يذكر الأمطار وشدة البرق يتخير الألفاظ التي تتكرر فيها حروف الراء والقاف ، فيقول : (( فإن كانت هذه الأمطار تُكاثر مكارم مولانا ، فيا طول ماتسفح .. ، وان كانت البروق تحاكي ذهنه المتسرع فيا طول ما

[1] ) ألحان السواجع /

[2] ) ينظر: الايضاح في علوم البلاغة ، القزويني/300.

تتألق ، وان كانت قوس قزح تتلون خجلا من طروسه فيا طول ما تتأنق ، وان كانت الرعود تحاكي جوانح اعدائه ، فيا طول ماتشهق وتفهق ، وان كانت السيول تجري وراء جوده ، فانها تجري على طول المدى وما تلحق)).[1]

فاللغة وبنيتها الحرفية تتسق مع مايريد ايصاله من ألفاظ ، ناقلا لها من مستوى المقروء الى المتلقي عن طريق حواسه وعقله فضلا عن صورها التي يثري بها تلك الدلالة. ففي تواتر الأمطار وما يصاحبه من رعود في سنة 746ه ، يعمد الى تكرار حرف الراء ليوصل صوت الرعد الذي يمثله الراء وقوته الى مخيلة المتلقي من خلال صوت الحرف وما يفضي اليه من تمثله في الذهن والاحساس بوقوعه وشدته ، فيقول :[2]

وصيّب الرعد لا ينفك يزجرها  أما ترى الرعدَ منها مثل مرتعدِ

يرمي رواشق نبلٍ صوب ساكبه  فتتقيه دروع الروض بالزردِ

2) الصورة البيانية

تمثل الصورة البيانية من خلال الصياغات اللغوية وانتقال المدلول اللغوي من الحال الوضعي الى احوال اخرى من خلال البلاغة وتقنياتها الى خلق تمثلات للحالة الشعورية التي تنقلها اللغة المكتوبة ، فوسائل البلاغة القارة تتمثل في شحن العبارة والتركيب بمعان ومداليل مختلفة عما كان عليه وضعها ليكون أثرها اقرب للوجدان ومعناها أوسع وهي زيادة في قوالب اللغة من خلال تضمينها معان اكثر .

ولعل أكثرها حضورا الصورة المجازية وما يتمثل منها في الاستعارة ، فالصورة الاستعارية تنقل اللفظ الى مستوى اخر يسهم في فنية العبارة وتأثيرها ويزيدها شحنة دلالية تجاوز الدلالة الوضعية وتعكس وجدان الكاتب وهو بالضرورة يتمثلها من خلال هذه الصورة البيانية وما تسمح به بنية اللغة بشكل عام

فمدولول المصطلح يدل على ذلك فالاستعارة في الاصطلاح : (إدِّعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه , مع طرح ذكر المشبّه من البين , كقولك : لقيتُ أسداً , وأنت تعني به الرجل الشجاع).[3]

[1] ) المصدر السابق : 155/1.

[2] ) المصدر نفسه : 168/1-169.

[3] ) التعريفات , الشريف الجرجاني : 20 .

وقد عرفها أبو هلال العسكري (ت395هـ) بقوله (نقل العبارة عن موضع استعمالها في اصل اللغة إلى غيره لغرض إما ان يكون شرح المعنى وفصل الابانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه أو الاشارة اليه بالقليل من اللفظ أو يحسن المعرض الذي فيه هذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة).[1]

(إن الصورة والاستعارة كلتيهما تعكسان بطريقة أو بأخرى , عواطف الشاعر وإحساساته, على ان يصوغها صياغة جديدة تعكس هذه المشاعر وتقدم مشهداً غير مألوف اذ لو كان ذلك مألوفاً لبدت الصورة مستهلكة ومكررة , فتفقد دورها وتأثيرها الجمالي اذ أنهما خرق لقانون اللغة).[2]

لذا فهي تتكرر في بنية اللغة في ألحان السواجع ، لأن نقل العبارة كما هي تماثل نقل الخبر الذي يتبادر الى اذهان الناس وألسنتهم ، لكنما هي من خلال الاستعارة تصاغ وتتمثل بأسلوب أعلى منزلة في بيانه ومعناه وأثره .

ثم رسم له صورة الوحش الضاري فيقول : (( أقام على ذلك برهةً يجول يمينا وشمالاً ، ويحود الديار بالخراب جنوبا وشمالا ))[3] وهي بنية استعارية فارقت الوضع الحقيقي لتمثل صورة مجازية للجائحة ولفعلها حين تكون وحشاً فاتكا ومميتاً فضلا عن حركته الدائرة على الجميع دون استثناء.

لكنه حين يصف تلك العلامات يعمد الى الكناية البعيدة حين يستجلب آثاره لا على نحو المباشرة التي قد يفهمها من كان خال الذهن من تلك الأهوال ، فهذه الجائحة تبدأ بالظهور كحبة في جسد الانسان ثم تكبر الى حجم الخيار ويكون مكانها تحت ابطه او خلف اذنه ،وهي علامات تشخيصية لكن الصفدي حين يساعرضها في الأدب يصوغها صياغة انشائية فتتراءى للقارئ انه قصد التكنية لا الوصف التشخيصي المباشر ، وهو بتحويلها أدبا قد تركها بمنطقة وسطى فتقرأ ادبا كونها صورة كنائية ولفظا مباشرا كونها من علامات الجائحة التشخيصية .

لكننا نلحظ أن القراءتين تصلحان ويكملان بعضهما لرسم صورة للداء حين يكون بوصرته الكنائية ، ففي قوله :

---

([1]) كتاب الصناعتين , ص295 .

([2]) بنية اللغة الشعرية , جان كوهين , ترجمة محمد الولي ومحمد العمري :98 .

([3]) الحان السواجع :114/1.

رعى الرحمنُ دهراً قد تولى يجازى بالسلامة كلُّ شرِّ
وكان الناسُ في غفلات أمرٍ فجا طاعونهم من تحتِ أبطِ

فموضع الطاعون أن يكون بظهوره كحبة أو تقرح تحت الأبط ، لكن العبارة تسمح بنقلها الى صورة كنائية ترى الجائحة مرافقة للناس كأنها ظلهم وأقرب اليهم ، وهي صورة مألوفة في السياق الأدبي لاسيما وان أحد شعراء العرب الصعاليك هو تأبط شراً إذ لقبته أمه به كناية عمّا أخفى تحت ابطه من افعى كان يحملها معه وصار لقبا له بما عرف به من غارات على القبائل المجاورة .[1]

ثم ينتقل الى استعراض مظاهرات وعلامات الاصابة ، لكنهما أي المتراسلين يدوران من خلال اللغة الانشائية حول تمثلات الجائحة مرة بوصفها وانشاء صورها المخيفة الفاتكة وأحوالها ومرة أخرى وهي الأهم حين يبحثان عن أسبابها ومحركها ، فهي كما تقدم في البيت الشعري أساها غفلات الناس وبعدهم عن الله (( وكان الناس في غفلات أمرٍ)) أو ينسبه الى القدر أو الى انقضاء حيوات الناس المقدرة ، (( ثم أنّه قتل بذلك جمعا لايعلم جملة عدتهم الا الذي قدر به نهاية مدتهم )).[2]

وأن صرّح بأن الأمر منوط بارادة الله فهو يسحبه الى الانسان حين يكون جاحدا بنعم الله كافرا بدينه ، فالطاعون مصدره الكفار وبلادهم فيحرص المتراسلين على ذكر منطلقه لاضاءة هذه الفكرة التي ترى في الوباء عقابا سماويا للكفار دون غيرهم وان انتشاره كان كذلك بسبب ديار الكفار ، فنراه يصرح قائلا :

آمنتُ بالله مقدّر الطاعون حتى عمَّ كلّ الناسِ
كم معشرٍ فقدوا به في جمعةٍ أتراهم كانوا من الأشراس

فالاستفهام التعجبي يحيل كل شرٍّ وجائحة الى انتقام الهي حول معصية ولا يبرر الأمر على نحو مختلف .

فالجائحة مدخل يرى الانسان فيه عجزه امامها فيلجأ الى تبرير فعلها وحدثانها باللجوء الى جلد الذات وفعلها الخارج عن التعاليم الدينية ثم يجتهد في جعل فعل الشر عاما للجميع مرة بالمشاركة وأخرى بالسكوت عن المعصية .

[1] ) ينظر : الاشتاق لابن دريد ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت 1991 : 266.
[2] ) ألحان السواجع : 114/1.

فيقول : (( وكلُّ دار كان فيها خمر يموت أهلها من ليلة واحدة ، ومن كانت معه امرأة حرام ماتا معا ، ومات قيّم المسجد وله خمسون ألف درهم فلم يقبلها احد ، ووضعت فيالمسجد تسعة أيام ، فدخل أربعة أنفس من الخليج ليلا فأخذوها فماتوا عليها...، وكل مسلمين كان بينهما تهاجر ولم يصطلحا ماتا )).[1]

ثم يورد قصصا عما جرى في زمن الجائحة تدور في السياق ذاته متمثلا الجائحة بأنها عقاب الهي يترصد المسيء والجاحد لكنه يورد معها حوادثا عن حصدها لجميع الأرواح دونما تفريق لكنه لا يقف عند مسبباتها ، ولعل هذا الأمر لم يكن قصديا لأن الكاتب ومجايليه يترصدهم الموت حين انشأوا تلك الرسائل ، فالباعث لم يكن للموعظة وحسب بل هو للبحث عما سبب تلك الجائحة وكوارثها فلا مناص أن يخرج الأمر الى جانب ديني مرده كفر الانسان بربه ومخالفة تعاليمه .

فيقول : (( وأصل هذا الوباء من تركستان بلاد الكفار .. فمات الناس إلاّ الملوك والعساكر والمشايخ والعجائز فلم يمت منهم الا القليل ))[2] ، فالجائحة تدور على باعث ديني يراه الكاتب ومراسليه لكنه لايقف عند تعليل واقعي ين يستثني فئات محددة ربما ترتبط بعزلتها عن الاختلاط بيد انه يرمي الأمر بجانب ديني .

ولا يتخلى في كل ذلك من بيان بواعثها ومسبباتها عن رسم الصورة البيانية لايصالها بيسر واقناع كذلك وان كانت كل تلك تصب في مقام الانطباع الشخصي والالتزام الديني .

فيزيد من تكرار الصور البيانية لتقوية حجته تلك ما دام الانشاء والترسل لايقف عند حدود الشخصين بل يتعداهما الى سائر الناس بلحاظ انه طبع تلك المراسلات ودونها .

فيقول في ذكر الامطار وما كان حالهم ازاءها : (( وأقبل وقد تقطّع خيط مزنه ، وسمح منه بالكثير بعد طول خزنه ، وجاء وعاء المطر في اخر الشتاء محلول الرباط ، وكل

[1] ) المصدر السابق : 117/1.

[2] ) المصدر نفسه : 118/1.

ما كنى عنه كانون صرح به شباط ، فجاء لا نعرف أيامه من لياليه ، ولا روائحه من غواديه ، وتواصل مدرارا وسال وسأل استمرارا ))[1]

فالصور تحيل المطر الى كائن وتمنحه الفعل ، فالتجسيم ماثل للقارئ وهو تجلٍ واضح للصورة البيانية ، فالصورة (( تجسيم مشهد حسي أو خيالي))[2] ،فغايتها تصيير الأثر الكتابي الى جسم ماثل أمام القائ لاسيما مع المجردات حين تتحول الى كائن حسّي من خلال اللغة وبيانها.

## الخاتمة

أدب الجائحة يمثل حالة انسانية تطوي في سطورها مشاعر االنسان وهاجسه في البقاء ، فجاء المكتوب منه صادقا وعابرا للذات الى الجماعة حين تكون المصائر مشتركة في هاجس الموت أو البقاء.

فخاض البحث في انموذجا تمثل في فن الرسائل الاخوانية التي جمعها الصفدي في لحن السواجع وما تضمنته في بعض مضامينها من وصف للجوائح والكوارث التي عاصروها وعبروا عنها ادبا، فجاءت نتائج البحث وخاتمته موجزة بالآتي:

- لم يعنَ المتراسلون في ألحان السواجع بوصف الجائحة مباشرة بل عمدوا الى بيان اللغة وبلاغتها .
- جاءت اللغة في بنيتها ثرية وحاملة لتفسير النكبة ووصفها من خلال اختيار الالفاظ وترادفها فضلا عن تكرار الحروف الدالة على ما يحيطهم من مخاطر وهلاك.
- عمد المترسلون الى تمثيل الجائحة من خلال الصورة البيانية لاسيما في الصورة الاستعارية والكنائية وتجسيمها لتقريبها من المتلقي وبيان خطرها وأهوالها.
- كان المغزى فضلا عن بيان الجائحة الى البحث عن بواعثها ومسبباتها وهي تجنح الى رؤى تتعلق بالدين وان الجائحة هي انتقام من الكفار او بداعي البعد عن الله ومخالفة تعاليمه .

[1] ) م . ن : 177/1.

[2] ) المذاهب النقدية ، ماهر حسن فهمي ، مكتبة النهضة المصرية : 204.

## المصادر والمراجع

القران الكريم

- الاشتقاق لابن دريد ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت 1991.
- الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الامام احمد بن حنبل ، علي بن سليمان المرداوي علاء الدين أبو الحسن ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، 1956.
- الايضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني ( ت 739 هـ ) ، وضع حواشيه : ابراهيم شمس الدين ، ط1 ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، لبنان ، 2003 م .
- بنية اللغة الشعرية , جان كوهين , ترجمة محمد الولي ومحمد العمري :
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، ( ت 1205 هـ ) ، تحقيق : مجموعة من الاساتذة ، ( د. ت)
- التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ، بيروت 1985.
- تفسير الفخر الرازي والمعروف بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للرزاي ، ط1 ، دار الفكر ، بيروت ، 1981.
- تهديب اللغة للأزهري ، محمد علي النجار واخرين ، الدار المصرف للتأليف والنشر، القاهرة . د.ت.
- ألحان السواجع بين البادئ والمراجع ، خليل بن ايبك الصفدي ، تحقيق : ابراهيم صالح ، ط1 ، دار البشائر ، دمشق 2004.
- شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط2 ، دار الجيل ،بيروت 1996.
- فن الشعر ، ارسطو طاليس ، مع الترجمة العربية القديمة ، وشروح الفارابي ، وابن سينا ، وابن رشيد ، ترجمة عن اليونانية ، وحقق نصوصه : عبد الرحمن بدوي ، ط2 ، دار الثقافة ،بيروت،

- في نظرية الرواية ، عبد الملك مرتاض ،سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 1998.
- كتاب الأم ، محمد بن ادريس الشافعي (ت 204هـ) :بيروت ( د 0 ت ) 0
- كتاب الصناعتين -الكتابية والشعر- ، ابو هلال ابن سهل العسكري ( 395 هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1952م .
- كتاب العين ، للخليل بن احمد الفراهيدي ت175هـ ، تحقيق عبد الحميد الهنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، 2003
- لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ( ت 711 هـ )، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان
- المذاهب النقدية ، ماهر حسن فهمي ، مكتبة النهضة المصرية : 204.
- معجم السرديات ، محمد القاضي واخرون.
- المعجم الفلسسفي ، ابراهيم مدكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، د.ت.
- المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1982
- مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس (ت395هـ)، تحقيق الدكتور عبد السلام محمد هارون، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم-إيران، 1404هـ.